

الفصل الثامن

القاهرة.. منازل الأموات

وفي أطراف العاصمة قطاع تقطنه الأغلبية العظمى. يقطنه الأموات. إنها مدينة أو قل ضاحية إن شئت، تمتد وتستدير مع مدينة الأحياء ما بين شوارعها المزدهمة وتلال المقطم - تلك الخريطة المقسمة دروبها تقسيماً هندسياً تبين لك إذا وقفت عند مسجد الجيوشى فوق القلعة من أعلى الحصن الذى قد قذف منه نابليون بقنابله العاصمة الثائرة. إنها ليست أرض الجبانة وإن كانت القبور جزء منها، بل هى مدينة مسطحة وحشية اللون، لها هى أيضاً شوارعها، وعلى بيوتها أرقام كأنما تنتظر مع الصباح موزع البريد، ولكنه إذا دق

الباب لن يفتح له أحد، فإذا دفعه دخل إلى مأوى كأنه مسخ للمعتاد من مساكن الأحياء: حجرتان متجاورتان على أرضها بساط من التراب. وفي كل منهما نصب مستطيل من حجر أو جص، وتحت أرض إحدى الحجرتين يرقد الذكور من أموات الأسرة، عزلم الموت عن الإناث المدفونات في قبور الحجرة الأخرى. ويسجى الميت على لوح من الحجر، مكفناً ولكن بلا ناووس. ومتاح لك زيارة مقابر الممالك، حكام مصر خلال ستة قرون، وزيارة المسجد الذي يضم رفات سلالة محمد على، ويرجع عهده إلى القرن التاسع عشر وله زخارف كثيرة. وأعرف فتى مصرياً ولد ونشأ في أمريكا، ذهب أخيراً إلى مقبرة أسرته ليحضر دفن عمته، وكان لم يألّف بعد عادات بلده، فركبته الحيرة حين اقترب منه أحد أقربائه وقال له في اهتمام خاشع انه أتى إليه من بعد أن ألقى السلام على أخته. لم يفهم قوله أول الأمر ثم أسعفته ذاكرته وأدرك أن محدثه يعنى أختاً له ماتت في طفولتها قبل مولده، إنها كانت راقدة في قبر الأسرة طوال السنين وتزار هي أيضاً.

أما الذين ينكرون دوام الصلة بين أهل القاهرة اليوم وأهل منف من قبل أربعة آلاف سنة، فإن في مدينة الأموات التي وصفتها ما يكفي للرد عليهم. كان الرومان يحرقون موتاهم، والإغريق يدفنونهم خارج المدن على قارعة الطريق، أما الدين الإسلامي فمن سنته دفن الميت في قبر لاحد لبساطته حتى إنك تستطيع بيدك أن تسويه بالأرض (قبر الملك عبد العزيز آل سعود مع أنه توفي منذ عشر سنوات فحسب لم يعد الآن في الرياض من يذكر أين هو ولا بقي من يزوره).

وتنفرد القاهرة دون بقية عواصم الإسلام بنظامها هذا للمدافن وما يستتبعه من واجبات، ففي الأيام المشهورة على مدار السنة - كأيام العيد الصغير الذي ينتهى إليه شهر الصيام، وأيام العيد الكبير الذي يحتفل عنده بوصول الحج إلى مكة - تحتشد الناس وتتوافد على مدينة الأموات، يحمل كل منهم سلة بها طعام كأنه خارج إلى نزهة، متلهفاً على زيارة أفراد أسرته الذين صاروا عاجزين عن لبس الأثواب الجديدة في العيد أو التمتع بالفسحة وشم الهواء. وكان هذا هو الشأن أيام الفراعنة

في مواسمهم أيضاً، وإن اختفت اثنتان من عاداتهم -
الآن لا تحنيط للموتى، والدفن في الضفة الشرقية من النيل حيث تشرق الشمس، أما عند الفراعنة - اللهم إلا أيام هرطقة أخناتون - فقد كان الميت يدفن - بعد تحنيطه بنفقة باهظة أو متواضعة وفقاً لدخل الأسرة - في الضفة الغربية من النيل، حيث مملكة أوزيريس.

وكان لصوص المقابر من المشكلات الدائمة للفراعنة، وما الأهرامات والقبور الغائرة في الصخر إلا محاولات لتضليل هؤلاء اللصوص. وأهل القاهرة يعانون منهم اليوم أيضاً، شأنهم شأن أجدادهم. وهناك قوة من الحرس تجوب المقابر، من أجل أفرادها ومن أجل أسرهم أيضاً، قامت متاجر صغيرة تبيع الشاي والأدوات المدرسية. وبعض الغرف المبنية فوق المقابر قد اتخذها الناس مساكن لهم، ولكن بالرغم من قوة الحرس وبالرغم من الغول الذي تقول الأساطير إنه يسكن في ظلام المقابر، فإن كثيراً من الأسر تعمل المقص في أكفان موتاهم حتى لا تبقى لها قيمة تغرى بالسرقة.